محمود محمد شاكر

أباطيل وأسمار

الجزءان، الأول والثاني

هل صح قول من الحاكي فنقبله،
أم كل ذاك أباطيل وأسمار؟
أما العقول فآلت أنه كذب،
والعقل غرس له بالصدق إثمار
"شيخ المعرة"

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرا، وصلّى الله على عبده ورسوله محمد، وعلى أبويه إبرهيم وإسمعيل وعلى سائر أنبيائه ورسله، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

رسالة الكتاب

وَيَقُولُ دَارِى ، مَنْ يَقُولُ ، وَأَعْبُدِى ! مَهْ ، فَالعَبِيدُ لِرَبِّنَا والدَّارُ ! (*)
يَا إِنْسَ ، كَمْ يَرِدُ الحَيَاةَ مَعَاشِرٌ ، وَيَكُونُ مِنْ تَلَفٍ لَهُمْ إِصْدارُ !
أَتَرُومُ مِنْ زَمَنٍ وَفَاءَ مُرْضِيًا ؟ إِنَّ الزَّمَانَ ، كَأَهْلِهِ ، غَدَّارُ !
تَقِفُونَ ، وَالفَلَكُ المُسَخَّرُ دَائِرٌ ! وتُقَدِّرُونَ ، فَتَضْحَكُ الأَقْدَارُ !

« شيخ المعرة »

حين شرعتُ فى كتابة هذه الفُصول (سنة ١٣٨٤ هـ ، سنة ١٩٦٤ م) ، كنتُ قد قدَّرتُ لها مقادِيرَ ، ونَهَجْتُ لها نَهْجًا مُسْتَبِيًّا ، ظننتُ أَنِّى ، بعَوْن الله ، قادرٌ على أن أمشِىَ فيه وفى درُوبه أتهادَى ، لا يَذْعَرُنى شىءٌ حتى أبلُغَ نهايته . ولكن شاء الله غيرَ ما شئتُ ، وقدَّر غيرَ ما قدَّرتُ ، وخابت ظُنُونى ، واخْتُطِفْتُ عن السَّيْر فى أوائله ، فَدَعْ عنك بلوغَ نِهايته ....

ثمّ كان ما كان ....

ولهذه الفصولِ غرَضٌ واحدٌ ، وإن تشعَّبتِ إليه الطُّرُق . وهذا الغرضُ هو ما قلتُ للأخ الصديق الأستاذ « محمد عودة » [ص : ٣٩٨] : « هو الدفاعُ عن أمّةٍ برُمَّتها ، هى أمتى العربيّة الإسلامية . وجعلتُ طريقى أن أهْتِكَ الأستارَ المُسْدَلَةَ التى عَمِل من ورائها رجالٌ فيما خَلَا من الزَّمَان ، ورجالٌ آخَرون قد وَرِثوهُمْ فى زماننا . وهمُّهم جميعًا كان : أن يحقِّقوا للثقافة الغربيّة الوثنيّة كُلَّ الغَلَبةِ على عقولنا ، وعلى مجتمعنا ، وعَلَى حياتنا ، وعلى ثقافتنا ، وبهذه الغَلَبة يتمُّ انهيارُ الكيان العظيم الذى بناهُ آباؤنا فى قرون متطاولةٍ ، وصحَّحوا به فسادَ الحياةِ البشرية فى نواحيها الإنسانية ، والأَدبيّة ، والأخلاقية ، والعمليَّة ، والعِلْميّة ، والفكريّة ، وردُّوها إلى طريق مُسْتقيمٍ . عَلم ذلك مَنْ عَلِمه ، وجَهِله مَنْ جَهِلَه » .

وكان ممَّا قدَّر اللهُ أن أفتح عينيَّ على ثورة مصر سنة ١٩١٩ ، وعلى دارٍ تموج

(*) « مه » ، استنكار ، وزجر ، وأمر بالسكوت = و« يا إنس » ، ترخيم « يا إنسان » .

بالثُّوَّار ، فعقلت من الأمر يومئذٍ ما عقَلْتُ ، ورأيتُ بعينى رجالًا ، وسَمِعت بأذنىّ آراءً ، ورضيت بقلبى أو سخِطت ، وأعانتنى فِطْرتى بضَرْبٍ من التَّمييز ، كان يرُجُّ نفسى رجًّا شديدًا ، وأنا بعدُ فى غضَارة الصِّبا . ولم أكدْ حتى انطلقتُ أجوبُ مجتمعًا يفُورُ بالمتناقضات ، ويتشقَّقُ بالصراع المُرّ فى ميادين مختلفة : من الدين ، إلى العلم ، إلى الأدب ، إلى الفنّ ، إلى السياسة ، إلى السُّنن الموروثة = فخُضْتُ مِحْنَة زَمانى ، فى أوَّل نَشْأتى ، بنفسٍ غَضَّة مُجرَّحَةٍ بالتجاربِ . ومضت بى الأيَّامُ ، وأثْخنتنى التجاربُ ، وهلك رجالٌ ، ونشأتْ رجالٌ ، فرأيتُ وسمعت ، وَرضِيتُ وسَخِطتُ ، وعلمتُ من أسرار الصِّراع ما لم أكنْ أعلمُ .

فصارَ حَقًّا علىّ واجبًا أن لا أتلجلجَ ، أو أُحْجِمَ ، أو أُجَمْجِمَ ، أو أُدارِىَ ، ما دمتُ قد نَصَبتُ نفسى للدفاعِ عن أُمَّتى ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا = وصار حقًّا علىّ واجبًا أنْ أَستخلص تجاربَ خمسين سنة من عُمْرى ، قَضَّيتُها قلقًا حائرًا ، أصارعُ فى نفسى آثارَ عدوّ خَفِىٍّ شديد النكاية ، لم يَلْفِتْنى عن هَوْل صراعِه شىءٌ ، منذ استحكمت قُوَّتى ، واستنارت بَصيرتى ، ومنذ استطعتُ أن أهتِكَ السِّتْر عن هذا العدوّ الماكر الخبيث = ثم صار حقًّا علىّ واجبًا أن لا أعرِّجَ على بُنَيَّاتِ الطريق ، إلا بعد أن أجعل الطريقَ الأعظمَ الذى تشعَّبتْ منه ، واضحًا لاَحِبًا مُسْتبينًا = ثم صار حقًّا علىّ واجبًا أن لا آلُوَ جُهْدًا فى الكشفِ عن حقيقة هذا العدوّ ، وعن حقيقة الصراع الذى عانيتُه وَحْدِى على وَجْهٍ من الوُجوه ، والذى عانيتهُ مَعَ أُمَّتى العربيّة والإسلامية على وُجوهٍ أُخَر .

* * *

وقد سِرتُ فى هذه الفصول المتشَعِّبة المعانى سِيرَةً واحدةً ، فضَمَّنتُ جميعَها بَابًا أو أبوابًا من النَّظر إلى حقيقة الصِّراعِ الذى دار ، ولم يزل يدورُ على أرضنا ، وفى عقولنا ، وفى ضمير أنفسِنا . وأشرتُ فى مواضع كثيرة إلى أنّ هذا الصراعَ صراعٌ بين حضارتين مختلفتين فى جُذُورهما أشدَّ اختلافٍ : حضارةٍ طالَ عليها الزَّمَنُ فَغَفَتْ غَفْوةَ آمنٍ مستريحٍ لا يفزِّعُه شىء = وحضارةٍ واتاها الزَّمنُ فهَبّتْ يقظةً مُتَلفّتةً جريئة ، لا تأمن أحدًا ولا تطمئن إليه ، فلمّا بَدَرتْ بوادرُ الصِّراعِ ، قامت « الغافية » تتمطّى ،

وتطرُد الفتورَ عَنْ أعضائها ومفاصِلها ، وتمسَحُ النُّعاسَ اللذيذ عن وجهها ، غافِلةً لا يفارقُها شعورها القديم بالأمْنِ والاطمئنان = أمّا « اليَقِظة » فهبّت حَذِرةً ، تراقبُ ، وتتحسَّس ، وتَطُوفُ ، وتتأهَّبُ للسطْو على هذه « الغافية » ، باغيةً لا يفارقها شعورُها الجديد اللذيذُ بالقوةِ والبَطْش والضَّرَاوة ، وبحبِّ الغلبة وبَسْط السُّلطان . وبدأ الصِّراعُ جَسًّا بأطراف الأسنّة ، وَدسًّا بأسباب التجارة ، وشيئًا فشيئًا ، جاءت « الجيوش » واستفحلت « التجارة » ، وجاء معهما أو سبقهما طوائف « المبشّرين » . لم يكونوا طائفة من الدُّعاة إلى الديانة فحسبُ ، بل كانوا طوائفَ لكلٍ منها صِفَةٌ ووسْمٌ تمشى به فى الناس ، تأخذُهم من غفلاتِهم قبل أن يفيقُوا . وأطبقتْ على رقعة العالم العربى والعالم الإسلاميّ ضبابَةٌ كثيفة ، ووَطِئ عليها تاريخٌ طويلٌ يسْحقُ القُوَى وينسِفُها نسْفًا .... وكانت قِصَّةٌ طويلةٌ متمادِيةٌ ، تقطر دَمًا وغَدْرًا وخيانة ، وترشَحُ مَكْرًا وخُبْثًا وخِسّةً وفَظَاظة .....

* * *

فهذه الفُصول التى كتبتُها ، ترفع اللِّثامَ عَنْ شىءٍ من هذه القِصَّةِ التى تجرى أحداثُها فى أخطر ميدانٍ من ميادين هذا الصِّراع ، وهو ميدان « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » جميعًا . ويزيدُه خطَرًا : أن الذين توَلّوا كِبْر هذا الصراع ، والذين وَرِثُوهم من خلفهم ، إنما هم رجالٌ منّا ، من بنى جلدتنا ، من أنفُسِنا ، ينطقون بلساننا ، وينظرون بأعيننا ، ويسيرُون بيننا آمنين ، بميثاق الأُخُوّةِ فى الأرضِ ، أو فى الدِّين ، أو فى اللغة ، أو فى الجنسِ .

ويزيدُ الأمرَ بَشَاعَةً : أن الذين هم هدفٌ للتدمير والتمزيق والنَّسْف ، لا يكادون يتوهَّمون أنَّ ميدان « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » هو أخطر ميادين هذه الحرب الخسيسة الدائرة على أرضنا من مَشْرِق الشمس إلى مَغْرِبها = ولا أنَّ معارك « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » متراحبَةٌ لا تُحدُّ بحدود = ولا أنّ أكثرها يأتى موقّتًا توقيتًا دقيقًا : إمّا قُبَيل حركات النهضة والإحياء ، وإمّا معها ، وإمّا فى أعقابها = ولا أنَّ الأمر صار أخطر ممَّا كان منذ سبعين سنة = ولا أنَّ هذه « المعارك » ليست فى حقيقتها « أدبية » أو « ثقافية » أو « فكرية » ، بل هى معارك « سياسيةٌ » ، تتخذ

« الثقافة » و « الأدبَ » و « الفكر » سلاحًا ناسفًا لقوى متجمّعة ، أو لقُوًى هى فى طريقها إلى التجمُّع = ولا أنَّ أمضى سلاح فى يد عدوّنا هو « سلاح الكلمة » الذى يحملُه رجالٌ من أنفُسِنا ، ينبثُّون فى كُلّ ناحية ، ويعملون فى كلِّ ميدان ، وينفثون سُمُومهم بكُلّ سبيل = ولا أنَّ بعض هؤلاء الرجال يأتون ما يأتون عن عِلْمٍ ، وبعضهم قد أُخِذَ من غفلتِه ، فهو مَاضٍ فى طريقه على غير بيِّنة .

وقد اتَّفق اتّفاقًا أن يكون أكثر ما طُوِيتْ عليه هذه الفصول ، كشفًا عن حقيقة إنسان من أهل زماننا ، ممَّنْ يأتى ما يأتى عن علمٍ وعلى بيِّنةٍ ، وقد مَهَّدتْ له الطريقَ قُوًى من وراء ستارٍ ، ظَلَّتْ تحوطُه وترعاهُ ، حتى انتهى إلى أن تصدَّرَ فجأةً ، وأصبحَ قادرًا على أداء مُهمّته فى هذه الحرب الدائرة ، آمنًا من كُلِّ رَيْبٍ ، مُعَانًا على تحقيق أهدافِ عدوِّنا فى أوسع صحفنا انتشارًا وأعظمها أثرًا ، وبين أعظم قُوَانا العاملة الواعدةِ ، وهى شبابُ هذه الأمة ، فخُدِعَ به من خُدِع . وقد اتَّخذَ « شيخَ المعرّةِ » ، فى بعض ما يكتب ، وسيلةً لبثّ أفكار كثيرةٍ تحت عَجَاج من التعالُم والتنفّخ بالمنهج وغير المنهج ، فأعاننى ما كتبَهُ على الكشف عن حقيقة الصراع الدائر بين حضارتنا وحضارة عدوّنا ، وأعاننى أيضًا على الكشف عن جَهْله بهذه العربية التى يكتب الآن بها ، وقد كان لها كارهًا ، وعلى حربها حريصًا فيما سلفَ من أيّامه . ثم أعاننى مرةً أخرى على الكشف عن كُلِّ ما يتنبّل به من معرفة بالإنجليزية واليونانية ، فأثبتُّ بالبرهان أنه فاقدٌ للحسّ الأدَبى ، فى ترجمة « الضفادع » لأرسطوفان ، (1) وأنه يدلّسُ على الناس ، على مذهب جماعة « المبشّرين » الذين حاطوه ورَعَوْهُ من وراء ستارٍ حتى بلغ ما بلغ ، مستعينين على ذلك بغَفْلتنا عن حقيقة الصراع فى ميادين « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » .

ونَعَمْ ، إنّ هذه الفصول ، قد تخلَّلها كشفٌ عن جماعةٍ آخرين ممن اتخذوا « الصحافة » أو « التأليف » فى زماننا ، ستارًا لبثّ ما يريدُه عدوّنا فى ميدان « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » ، ولكنى كنت قد عَقَدتُ النيّة على أن أُتابعَ السَّيْر ، بعد أن

(1) انظر الفصل رقم : ٢٥ من هذه الفصول ص : ٤٤٥ - ٤٦٦ .

أفرُغَ من هذا الدعيّ ، فأكشف الستارَ عن رجالٍ كان لهُمْ أثرٌ فى تحطيم قُوَى الأمة العربية الإسلامية ونَسْفِها ، ومنزلة كُلٍّ منهم فى إحدى الفئتين : فئة مَنْ يأتى مَا يأتى عن علم ، وفئة مَنْ أُخِذ من غَفلته ومضَى فى الطريق على غير بيِّنةٍ ، ولكن حَلَّ بى ما فَسَخَ هذه النيَّةَ ، وأنا غيرُ مريدٍ لفَسْخِها . ولكن هكذا كان ، ولله الأمر مِنْ قبلُ ومن بعدُ !

وعَسَى أن يأذَن الله فيما بقى من العُمُر ، أن أتابع كتابة تلك الفصول التى فَسَخَ القَهْرُ نِيَّتى فى كتابتها ، فإنَّ الأمر لن يستقيم لنا ، حتى نُعِيد دراسة الفئتين جميعًا ، والكشف عن حقيقة آرائهم : كيف كانت ؟ ولِمَ جاءت ؟ ومتَى أذيعتْ ؟ وإلى أىّ مكانٍ تنتمِى ؟ ولن تُغْنِى هذه الدراسة فتيلًا ، إذا غرَّنا عن مواطئ أقدامنا ، ما يذكُرُون به فى الناس من تمجيد وثناء ، أو ما نالُوا فى حياتهم مِنْ توقير وتعظيم ، أو ما بلغوا فينا من منزلة القيادة الفكرية والثقافية ، فإنّ أكثرَ ذلك كُله تدليسٌ دَلَّستْهُ على جماهيرنا غَفْلتُها حينًا ، وجَهْلها حينًا آخر . ونسأل الله أن لا نَضِيع بين الغفلة والجَهْل ، وأنْ يسدّدَ خُطَانا وخُطَى أمتنا إلى غاية مرموقة ، يعينُ على بلوغها تُرَاثٌ من الثقافة والأدب والفكر ، لو كان لعدوِّنا مِثْلُه ، لَمَا لَجَأ إلى أبشَع وَسَائِل التدمير والنَّسفِ ، حتى يتركَنَا أمَّةً عاجزةً جاهلةً تخرُّ على آثار قدميه خاضعة ، تصف نفسها بألفاظٍ كثيرةٍ تُدَار على أسماءِ صِغارنا وكِبارنا بالليل والنهار ، كالتخلُّف ، والتعصُّبِ ، والرجعيَّة .

اللَّهُم اَهدِنا فيمن هَدَيت ، وتولَّنَا فيمن توليت ، وقِنَا شرَّ ما قضيت ، إنَّكَ تَقْضِى ولا يُقْضَى عليك ، لا يَذِلُّ من والَيْتَ ، ولا يَعِزُّ مَنْ عاديْتَ ، سُبحانك لا شريكَ لك فى مُلْكك .

محمود محمد شاكر

مصر الجديدة

شارع الشيخ حسين المرصفى رقم ٣

١٧ من ذى القعدة سنة ١٣٩١

٤ يناير سنة ١٩٧٢